الضوء عند حافة الأفق

قصة بقلم وحيد النقاش

(الى صديقي سليمان فياض ، الذي ادين له بايقاظ عالم هذه التجربة في نفسي .)

*

بلغت الثامنة والعشرين من عمري ، ليس اليوم ، ولكن منذ عدةشهور. ترى هل يشفع لي هذا التقدم المريع في السن اذا ما قمت ببعض الاعمال الهستيرية التيقد يحكم الناس علي من خلالها بالجنون . او على الاقل قد يكتفون بالنفور من معاملتي على مستوى الكائنات السوية الجديرة بالاحترام ؟ . اعمال هستيرية ؟ . وما هو نوع تلك الاعمال ؟مثلا: اقوم من النوم في الصباح فاعبر صالة شقتنا حتى اصل بمنتهى السرعة الى غرفة الجلوس . ودون ان اهتم حتى بازالة آثار النعاس منوجهي، اسارع بفتح الشباك واقذف براسي الى الخارج حتى يصبح نصفي الاعلى معلقا كله في الهواء . وارفع عيني الى اعلى مسددا نظرتي الى حبل الغسيل المعلقفي شرفة الشقة التي ترتفع بدورين عن شقتنا في العمارة المقابلة . وادقق النظر . فهناك شيء ما يربطني بهذه الحبال . ليس نظري ضعيفا ، ولكن غشاوة النوم ما زالت تمنعني من رؤية الاشياء بوضوح . وأحاول جهدي أن أعد مشابك الغسيل المعلقة على الحبال : واحد . اثنين . ثلاثة . اربعة . خمسة . اذن فالموعد في الساعة الخامسة . تمام . وانتظر دون جدوى ان يفتح شباك الشرفة وتطل سناء بوجهها المليء بالرغبة ، فاتملى منه قليلا ، وأحظى بابتسامة تدغدغ حواسي . ثم بعد ذلك اعاود الرجوع الى حجرتي فارتمي على السرير بتكاسل وقد غمرني احساس شديد بالقلق : كيف ، وانا الانسان المثقف الجأ في سبيل ارضاء رغباتي الى مثل هذه الطرق التي طالما كرهتها ونفرت منها ، بل ونددت كثيرا بما فيها من تفاهة وسطحية ؟ واذا ما تصادف ورآني احد مع سناء ، بعض معارفي او اصدقائي مثلا ، فماذا اقول لهم ، وكيف لي بمواجهتهم ، وهم الذين يعرفون شغفي الشديد بالدفاع الجاد المتزمت عن الصلابة والقوة والمثل العالية ؟ . لا شك ان هذا لا يتفق بحال من الاحوال مع السنوات الثمانية والعشرين التي احملها كما يحمل المسافر بطاقته الشخصية . وقد ينخدع البعض فيقولون ان الانسان عندما يبلغ الثامنة والعشرين فانه لا يعتبر حينئذ متقدما في السن . ولكني أسارع فاقول ان الحياة لا يكفي في قياسها الزمن وحده ، الزمن المجرد ، ولكنها بالنسبة لي ولبعض الاشخاص الاخرين تقاس بالزمن المليء بالاعمال ، الزمن الكثيف . وعلى هذا يجدر بي انألقي السؤال هكذا : ماذا صنعت انا خلال هذه المدة من الزمن ، او بالاحرى ، ماذا اتيح لي ان اصنع ؟ .. وعندما يكون الجواب : لا شيء ،اكون انا قد تقدمت في السنكثيرا جدا ، دون ان يتاح لي عمل شيء ، بل وأكون ايضا قد اصبحت شخصا يرثى له ، آلة تدور في الفراغ .

لا انكر ان لي اصدقاء كثيرين ، كثيرين جدا، يفوق عددهم اضعاف متوسط اصدقاء اي شخص عادي . وهذا من احدى الزوايا قد يعتبر من قبيل الحظ الحسن . ولكني لامر ما ، بدأت اشعر ان ذلك ما هو الا بعض مظاهر تعاستي . هم يقدمون لي الولاء والاحترام الكافيين لجعل اي انسان يزداد شعورا بالثقة في نفسهفيما لو حظي بمثل هذا القدر من العواطف . الا اني ، وقد تجاوزت الثامنة والعشرين من عمري ، بدأت اشعر بجفاف عجيب في علاقتي بهم . جفاف في داخلي يجعلني باستمرار احس بكثافة جسدي كلما قذفت بي الظروف في موقف مع أي منهم . وأتململ ، وأراهم هم الاخرين يتململون بدورهم وكأنما قد حبست واياهم في غرفة خانقة وما علينا الا ان نسارع بالهرب منها قدر ما نستطيع قبل ان يصيبنا الاختناق . ويكون انهاء الموقف مصحوبا بالشعور بالاثم من ناحيتي على الاقل ، مهما كان الامر تافها . وأحاول قتل هذا الشعور بكلمات الوداع الجوفاء التي احملها انفعالات زائفة تدل علىارتباطي بهم. وأحدد معهم موعدا آخر للقاء معتذرا عن تعبي في هذه اللحظة . وأنا وان كنت تعبا ،فانه ذاك النوع من التعب الذي لا يمنعني بأي حال من الاحوال من الجلوس مع اي صديق والتحدث معه بطلاقة فيما اذا وجدت المبررات الكافية لذلك في نفسي . الا انني بعد ما ارهقني هذا النوع من الانفعالات حتى صرت لا اقوى على القيام بأي عمل ، بدأت افكر في الامر . وليس غريبا في الواقع ان ترتبط هذه الانفعالات بالانفعالاتالاخرى التي تصاحب تفكيري في سناء وانا بعيد عنها . (عندما كنت جالسا معها كان التفكير فيها مستحيلا فقد كنت ساعتها مستغرقا في نوع من الحذر الذي يحيلني دائما الى كائن شبه سلبي) . فقد حدث انني بعد عودتي الى سريري ذات صباح من رحلتي القصيرة الى شباك حجرة الجلوس ، كان قلقي قد بلغ قمته . وكنت في الليلة السابقة قد قابلت عشرين صديقا ،على الاقل ،وسهرنا حتى تجاوزت الساعة منتصف الليل بكثير. لم اكن اذكر بالضبط ما هي الاحاديث التي تبادلتها مع هؤلاء الاصدقاء لانها كانت من ذلك النوع من الكلام الذي ينسى بعد قوله مباشرة ولا يتخلف منه في النفس الا بعض المشاعر التي تؤرق الوجدان طويلا مثل الريح الكريهة التي تمر على مكان نظيف لتمكث فيه قليلا ثم تمضي . وفتحت نوافذ حجرة غرفتي كلها واضطجعت على الفراش بتراخ وجعلت استمتع بضوء الصباح الغامر الذي دخل الى الحجرة في قوة .وساعتها اشعلت سيجارة وأخذت أفلسف المسألة على هذا النحو : « الحياة يا محمود من حيث اللفظ مشتقة من فعل « يحيى » او « يعيش » فعلان يدلان على الحركة . وما من حركة في العالم الا وتستهلك ما يسمى في العلم « بالطاقة » . واستمرار الحركة التي هي الحياة مرهون بوجود الطاقة دوما . البنزين الذي يحرك السيارة . الحرارة التي تدفعها الى امام . وقد علمتك ثقافتك التي تحرص عليها دائما حرصك على شرفكان العلاقات الانسانية ـ والصداقة بوجه خاص ، او الحب ـ هي الحياةفي أنقى لحظاتها ، الحياة الطاهرة الشفافة . والحياة في أنقى لحظاتها ـ في الصداقة مثلا ، ولندع الحب جانبا لان لنا معه شأنا آخر ـ تحتاج الى الطاقة في اقصى صورها . ومن اين لك بهذه الطاقة يا محمود وقد

استنفدت . استنفدت نهائيا على التقريب خلال ثمانية وعشرين من الاعوام الطوال ؟ لقد كنت تعمل مدرسا في العراق لانك لم تجد عملا في مصر بعد تخرجك . وكنت تحظى بكل احترام من الناس هناك ، وكنت تنفق عن سعة . ولكنك عند عودتك كاد اصدقاؤك ألا يعرفوك من شدة نحولك . وكان الذبول باديا عليك مما اثار دهشة الجميع وشفقة اهلك. طبيعي اذن يا محمود ان تجلس مع صديق لك لقيته بعد غيبة مدة طويلة، عن طريق المصادفة ، وكنت في الماضي قد انفقت معه احلى اللحظات، ثم بعد ان ينتهي حديث الترحيب والسؤال عما حدث خلال مدة الفراق هذه ، ترى نفسك قد فرغت جعبتك تماما ، لم تعد لديك كلمة واحدة جديدة لتضيفها الى ما فرغت من قوله . ثم ترى لزاما عليك ان تقوم مدعيا الانشغال ـ وانت في الواقع تشكو من الفراغ ـ متمنيا ان تلقاه قريبا جدا لتعاودا احياء الصداقة التي كانت مزدهرة بينكما في الماضي.»

وبقيت اخاطب نفسي مدة طويلة على هذا النحو . ثم تتوارد على مخيلتي جميع مواقف اللقاء التي مررت بها منذ عدت الى القاهرة،فأشعر بقليل من الضيق متمنيا لو حدثت من جديد ، اذن لكنت كيفتها على النحو الذي يرضيني . والغريب انني بدأت الاحظ عدم تفردي بهذا الجفاف . دعاني « شوقي » ذات مساء لالقاه على المقهى الذي كنا نلتقي فيه كل مساء اثناء فترة دراستنا . وشوقي اليوم يشغل منصبا كبيرا في التدريس رغم صغر سنه . وطالما حسدته على هذه الطاقة العجيبة من البلادة التي يتمتع بها في مواجهته امور الحياة . وكثيرا ما كانت هذه البلادة مثار سخرية مني حتى أنني فرحت ذات يوم باثارته فاذا به يدافع ـربما لاول لاول مرة في حياته ـ عن بلادته بانفعال شديد .ولكن،ها هو الان يفحمني بواقع حياته المطمئن . ولست ادري أينا كان على حق، حتى الان . وظللنا نتحدث في هذه الامسية طويلا . وادهشتني نبرة المرارة التي كانت تشوب حديثه ، لقد كان كأنه كتلة سوداء من اليأس. تعلقت به زميلة له كنت اعرفها وانفر منها بشدة ، اذ أنها كانت ، فيما بدا لي ، تتستر على حقدها العارم الموجه ضد الناس ، بمظهر خادع من الفكر والثقافة والحرية . لم تكن قبيحة جدا ، ولكنها كانت تدفع من يراها الى النفور منها بسرعة شديدة . ولكنه بعد مدة تعلق بها هو الاخر، بياس . وها هو الان يرجم كل شيء بكلماته ، حتى نفسه ، حتى خطيبته سامية . قال لي يومها ونحن نحتسي اكواب الشاي ونتبادل السجائر في جو غريب من صخب زبائن المقهى وأشكالهم المتنافرة ، وطرقعة زهر الطاولة بسرعة ، وتعليقاتهم المرتفعة : ـ

ـ ماذا بقي لنا يا محمود ؟ لقد كنا ندفع الثمن في بداية عهدنا بالدراسة من الكبت والمثابرة والتقاضي عما في حياتنا من تمزق . كان أبي كما تعلم انت جيدا يرسل لي اربعة جنيهات في الشهر أنا وأخي . تصور . كنا ندفع جنيهين منها للحجرة التي كنا نسكنها فوق سطح احد البيوت القذرة . وكان علينا بعد ذلك ان نقضي جميع مطالب الحياة من أكل وشرب وشراء للادوات الدراسية من الجنيهين الباقيين . تصور .لقد كنا نتحمل هذا كله . ندفع هذا الثمن الباهظ عن طيب خاطر ، في سبيل الامل الذي نسعى اليه ويبرق من بعيد في ظلمات المستقبل . يبرق فقط . ومع ذلك فقد تخرجنا ، واشتغلنا ، ولم يحدث اي شيء . تعقدت الامور عن ذي قبل . وستراني بعد ايام ارضى ـ ولا حيلة لي ـ بالبقاء في بيت واحد طول عمري مع وجه قبيح . ولكني احبها معذلك. هيه . وهي تعبدني . تعبدني .

ومط حروف كلمة تعبدني بشكل يوحي الى السامع بعكس ما تحمله من معنى على طول الخط . أسخرية هي ، ام اشفاق ، أم يأس ؟ كانت جميع هذه الانفعالات تطل برؤوسها من كل حرف من حروف الكلمة وهو يخرجها ببطء ويتوقف عند كل مقطع ليوفيه حقه من الطاقة الصوتية . وأجبته دون ان اسمح له بالاسترسال في هذا الجو الكئيب من المعاني الخانقة : ـ

ـ ولكنك تملك كثيرا من الاسلحة تستطيع ان تقاوم بها كل هذه الاوضاع . لديك مثلا مركزك المطمئن في التدريس ، وهو مركز يحسدك عليه كثيرون ممن هم في مثل سنك . ولديك القدر الكافي من الثقافةالذي يؤهلك لفهم كثير من الحقائق . ولديك زاد من الاحترام تلقاه كلما وجدت في مكان ما . واخيرا فانك تستطيع ان تعتمد على« سامية » طالما هي « تعبدك » كما تقول .

وحاولت بكل جهدي ان انطق الجملة الاخيرة بصوت محايد خال من كل انفعال ، ويبدو انني لم افلح في ذلك كثيرا ، فقد بادرني بقوله على الفور :

ـ سامية ! هيه . انني سأنتحر على صدرها . انني اتصور نفسي منذ الان لا ادخل عش زوجيتنا المزعوم الا بعد منتصف الليل ، وجسمي يترنح من فرط السكر أتساند على الجدران في الشوارع المظلمة . اسمع . سأحكي لك ما حدث لي ذات مرة : عدت الى منزلي بعد ما شربت وثرثرت كثيرا مع كل من قابلتهم من المعارف . وكنت قد دعوتها لاول مرة لزيارتي في بيتي ذلك الصباح . وحاولت تقبيلها ولكنها رفضت ، الملعونة . ترفض . تصور . انها تتمنع . ها . ها . ها . تتمنع بنت اللئيمة .وقد أثارني هذا الموقف جدا حتى انني لم استطع ان افعل شيئا غير الهرب من نفسي . وبمجرد ان عبرت مدخل البيت ـ وكان ذلك في الثالثة صباحا على التقريب ـ حتى رأيت الشقة الاولى في الدور الارضي مضاءة في هذا الوقت المتأخر ، والباب مفتوح على مصراعيه . وهذه الشقة يسكنها شاب في مقتبل عمره يعمل سائقا في احدى شركات الاتوبيس ، وله زوجة جميلة جدا في ريعان شبابها وطفلان صغيران . ولم اكن اسمع عنهما شيئا قبل اليوم على الاطلاق منذ سكنت في الدور الثاني . كنت احيانا ألتقي به في مدخل البيت وأنا خارج الى العمل في الصباح فأكتفي برد التحية التي يوجهها الي في اقتضاب بالغ . وعندما كنت اعود ، كنت ارى وجهها هي مطلا من فرجة الباب تنادي طفليها اللذين يلعبان في الشارع . وغالبا ما كانت صورة وجهها تظل عالقة بوجداني لمدة ساعات بعد ذلك حتى تطمسها مشاغلي التي كنت استغرق فيها ابتداء من المساء. وفي هذه المرة رأيتها ـ بكامل جسدها وليس بوجهها فقط ـ جالسة على الارض في صالة شقتها وقد جلس قبالتها زوجها على كرسي من الخيزران ومد ساقيه امامها في وعاء بينما انهمكت هي في تدليك قدميه. كان وجهه شاحبا وسمعته يتأوه في صوت واهن بينما كانت هي اشد شحوبا منه . وتباطأت خطواتي من تلقاء نفسها لالتقط تفاصيل المنظر وأنا اعبر المسافة الصغيرة من الباب حتى بداية السلم دون ان يبدو علي الفضول . ولكنها لمحتني ، فجرت نحوي بسرعة ، فحرصت على ان اكون مبتعدا عنها بمسافة كافية لمنعها من معرفة حقيقة الحالة التي كنت فيها عن طريق الشم ، وبادرتني بجراة الذي لا حيلة له :

ـ انا انتظرت حضرتك كتير . طلعت فوق وخبطت على الباب لكن ما حدش رد علي . أعمل معروف تكتب لجوزي علشان يحولوه مستشفى الشركة ...

واستردت انفاسها قبل ان تستأنف حديثها القلق : —

— أصله عيان قوي ، وما قدرش يروح الشغل النهار ده .

الذي استوقفني يا محمود ليس الحادث في ذاته ، فكثيرا ما يتكرر أمثاله امامي عن طريق المشاهدة او السماع ، ولكن المهم هو تلك الطريقة التي كانت تدلك بها امرأة شابة قدمي زوجها المريض في قلب الليل وليس من احد معهما سوى الظلام في الخارج والسكون المطبق والانات الخافتة . ثم ، يا محمود ، تلك اللهفة التي بدت عليها عندما رأتني كأنما قد عثرت على كنز ثمين ، او قطرة ماء بعد عناء سير طويل في صحراء محرقة ، ذلك هو الذي بهرني حقا . وحاولت ان ارد عليها ان اشاركها بأي طريقة في ألمها ، غير اني لم اعثر على غير هذه الكلمات:—

— انشاء الله ، مري علي الصبح خذي الجواب .

وعندما كانت تقول لي ((كتر الف خيرك)) كنت انا اصعد الدرج متساندا على الحاجز الحجري ببطء شديد وكأنما قد صب علي وعاء كامل من الماء البارد فأصابتني رجفة شديدة وبدأت آثار السكر تزايلني بشكل فجائي . وخيل الي ان هذا الرجل المريض ذا الوجه الاصفر ، المتهالك على كرسي قاس ، انما يستنشق ، في هذه اللحظات ، انسام سعادة خفية . وعبرت في خاطري تفاصيل ما حدث لي مع سامية في الصباح، فكدت ابصق على صورتها التي بدأت تبرز في رأسي بشكل وقح.وظللت مرتميا على فراشي بملابسي كاملة طول الليل والدموع تنهمر من عيني دون ان اقوى على حبسها . سامية ! آه ! اني سأضمها ذات يوم ، قريبا جدا ، الى صدري ، كما عانقت كليوبطرة الافعى بغية الانتحار . سأنتحر على صدرها يا صديقي . ولا مفر . انها تريد ان تتزوج المنصب فيَّ ، تريد ان تشركني في تمثيلية سخيفة تبرر بها نفسها امام المجتمع. ولكن .. لا مفر لي منها ....))

وانهمرت الدموع من عينيه مما اضطرنا الى القيام خشية ان ينتبه الينا زبائن المقهى وكلهم تقريبا يعرفوننا منذ زمن طويل . واذ لم اجد ما أرد به عليه ، لم يكن لي بد من تركه لاعود الى المنزل كي احاول النوم لاستيقظ في الصباح على عدة مشابك للغسيل رتبتها سناء باناقة على الحبال المعلقة في شرفتها لتحدد لي موعدا ألقاها فيه ، كيما انحدر ، للحظات ، الى الخدر الذي تدفع بي اليه .

✶

منذ عدت من القاهرة اسلمت نفسي كلية للمصادفة . قد يكون هذا جميلا ، ولكن في هذه الظروف القاسية التي كنت مارا بها ، لم يكن من الاوفق ان اترك نفسي على سجيتها هكذا ، وأسلم زمامي الى الحوادث تشيلني وتحطني كما شاءت . قد يكون السبب اني كنت مشتاقا جدا الى كل ما في القاهرة ، كنت اريد ان أمتعها ذرة ذرة بوجداني المتعطش لاطمئن نفسي الى انني لم افقدها الى الابد كما كان يخيل الي في ليالي غربتي القاسية ، فأصاب بالذعر ، وأعكف على الشراب والبكاء . وقد تكشفت لي خطورة هذا الوضع عندما انسقت وراء ابتسامة سقطت علي من شرفة سناء ذات صباح فلم استطع ان اصمد امامها لفرط اشتياقي الى صحبة امرأة ، أية امرأة . لقد رسمت لي موعدا بمشابك الغسيل . وكان ما يشغلني في هذا الوقت هو كيف سأستطيع ان اعاود الحياة في القاهرة من جديد ، وكنت أدرس جميع الوسائل العملية التي يمكن ان توصلني الى ذلك . وعلى خطورة هذا الموضوع بالنسبة لحياتي كلها : في الحاضر، وفي المستقبل ، وكذلك في الماضي ايضا ، الا انني نسيته تماما عندما انفرجت شفتان مكتنزتان ورسم انفراجهما على البعد ابتسامة دعوة ، وتألقت عينان سوداوان جميلتان وقالتا لي كثيرا من الكلام . ولم افكر يومها في شيء آخر غير لقائها . وظللت قبل موعدها بساعات ادبر في رأسي كل ما سأفعله معها خلال جلوسي اليها وكل ما سأقوله لها بالتفصيل . وعندما كنا ننزل درجات السلم المؤدي الى حديقة الكازينو المطل على النيل ، عثرت قدمها وكنت متأخرا عنها بدرجة فاذا بها تسقط على صدري،ورأسها ، بالشعر الغزير المعطر الذي يكسوه،مدسوس تحت أنفي مباشرة . ولففت ذراعي حول خصرها ودفعتها الى الامام بكل قوتي حتى لا تسقط وأسقط أنا معها . فاذا بها تعمدت هذه العثرة كي افعل انا هذا الذي فعلته . وتلاقت عينانا ونحن نعاود النزول فتأكدت ساعتها تأكدا تاما من صدق هذا الخاطر الذي مر بي .

وعندما كانت جالسة قبالتي على المائدة المغطاة بمفرش طويل ينزل مسترسلا حتى يكاد يلامس الارض ، احسست انها تقترب بصدرها من حافة المائدة اكثر فأكثر حتى التصقت تماما بها وثبتت كوعيها عليها بينما أسلمت رأسها الى كفيها وهي تنظر الي . وبعد قليل شعرت بساقها ،من تحت المائدة ، تلتف بساقي وتضغط عليها بشدة . لم يكن في نظراتها اي خجل . واستحوذ علي ارتباك عنيف حتى شعرت بقطرات من العرق تتجمع على جبيني في بطء وأخرجت منديلا اجفف به وجهي بينما بدأت هي الكلام بقولها:

— أتدري ما الذي اريده انا من هذه الحياة ؟. انني لا ابتغي سوى الرجل ... الرجل ولا غير .. لقد طلقني زوجي منذ سنة لانه كان يغار عليَّ . أبله ! وهاندا اليوم قد مضت علي سنة طويلة وأنا محبوسة في المنزل مع أمي وأخي المتزوج لا أكف طول النهار عن الشجار مع زوجته. وهم ثلاثتهم يحصون علي كل حركة اقوم بها كما لو كنت موشكة على ارتكاب جريمة في كل لحظة . اسمع . انا لا اريد زوجا ، ولا حبيبا ، ولا اي شيء آخر من هذا النوع . أريد فقط رجلا ... عشيقا !...

تاريخ

الفلسفة العربية

بقلم

حنا الفاخوري
رئيس كلية لبنان

خليل الجر
دكتور في الفلسفة

كتاب جديد يتناول بالبحث الرصين ، والتحليل الوافي ، جذور الفلسفة العربية ، وأهم مدارسها وأشهر رجالها بالاستناد الى أوثق المصادر ، والى النصوص المحققة

يطلب من

دار المعارف . بيروت

بناية العسيلي . السور . ص.ب ٢٦٧٦ - تلفون ٢٢٥٧٤

ومن جميع المكتبات الشهيرة

لها وحولوا نظراتهم الينا من اجلها . بينما كنت انا منهمكا بكليتي في تجفيف عرقي أحرك يدي القابضة على المنديل بشكل آلي ابتداء من جبهتي حتى ادنى ذقني ، مستسلما للخدر اللذيذ الذي يحدثه احتكاك ساقها بساقي من تحت المائدة .

واستأنفت قولها :

ـ هل ستظل مع اهلك دائما ؟.

واستجمعت طاقتي لاجيب عليها :

ـ لا . انني انتظر حتى احصل على عمل ثم انفصل عنهم لاسكن وحدي . فانا بحاجة الى الوحدة لكي أواصل اتمام مشاريعي التي اعددتها للمستقبل .

ـ واين ستسكن ؟

ـ لست ادري حتى الان .

ـ ارجو ان تحرص على ان يتوفر في سكنك الجديد هذا شرطين : ان يكون بعيدا في وسط المدينة ، وأن يكون كذلك في حي صاخب .

ولم استطع ان افهم مغزى هذا الطلب الا بعد قليل ، فقد سألتها :

ـ ولم هذه الشروط ؟

فاطلقت نفس الضحكة العالية وهي تقول :

ـ الم تفهم وحدك . انك ساذج !

فارتبكت مرة اخرى بصورة قوية ، ولكني تذرعت بالهدوء وقلت لها :

ـ لم افهم . انني اريد حيا هادئا . يصلح للعمل . فلماذا هذه الشروط ؟..

ـ لكي استطيع زيارتك دون ان يراني احد !..

وعندئذ ادركت ضرورة فراري من هذا الموقف بأسرع ما يمكن . لم اكن ابتغي الجلوس الى انثى . محض انثى لا تبتغي من حياتها شيئا سوى الرجل . كنت اريد فتاة رقيقة سحرتني في الصباح ببسمتها وتألق عينيها لاجلس معها قليلا فأحظى بشيء من الراحة وهدوء البال . وربما ... ربما استطعت بعد تكرار لقائي معها ان آنس اليها اكثر فأكثر وأحظى في النهاية بانسانة تحبني وأحبها . ما كان اشد خيبتي ! وما شعرت بعدها الا وأنا ادفعها امامي الى الخارج بقوة ونظرات الرواد تلاحقنا ، وسمعتها تقول ، وأنا اودعها على محطة الاتوبيس :

ـ ماذا جرى لك ؟

ـ لا شيء . مجرد تعب بسيط يحدث لي احيانا .

ـ مسكين !

قالتها بسخرية حتى قررت ان احسم الامر بأسرع ما استطيع ،فقلت لها بعصبية والمنديل ما زال عالقا بيدي .

ـ مع السلامة .

ـ ومتى سأراك ثانية ؟

ـ قريبا .. قريبا ...

قلت ذلك وأنا اسارع بالابتعاد كأنما أجري ، أفر من شيء مفزع . وعدت الى البيت . وكان اول شيء فعلته هو ان اغلقت شباك حجرة الجلوس ، وأنزلت عليه ستارة لم تكن تنزل عليه ابدا مع انها موجودة منذ زمن طويل ، وجلست خلفه على كرسي مريح اجفف عرقي،ودموعي، حتى الصباح .

✶

غير ان الصباح كان يحمل لي مفاجأة جديدة ، بينما كنت قد عقدت العزم نهائيا على ألا تكون دموع المساء قد جفت الا ويكون القلق الذي استحوذ على نفسي قد تبخر نهائيا ورجعت الى حالة من الصفاء تؤهلني لبداية مرحلة جديدة من حياتي . ولكن الدموع آثرت ان تتخذ من هذه المصادفة الجديدة معينا لا ينضب . وظللت ابكي بعد ذلك بلا انقطاع لمدة ثلاثة ايام . ثلاثة ايام طوال .

كنت مستغرقا في دفء الفراش استغراقا كليا وقد اخذني ذلك الخدر اللذيذ الذي يسيطر علي في تلك اللحظات على الدوام كلما تصادف ونمت متأخرا . وسمعت طرقات على باب الحجرة ولم يمهلني الطارق حتى ارد عليه ، اذ سمعت صرير الباب وهو ينفتح برفق وصوت اختي الكبرى يصافح اذني وهي على مسافة قريبة جدا من رأسي :

ـ محمود ! محمود !

وتقلبت في الفراش على جانبي الاخر موليا ظهري اليها دون ان ارد ، لانني كنت متعبا للغاية وأريد ان استأنف النوم دون ازعاج . غير أنها كانت فيما تبدو متلهفة على ايقاظي بأي ثمن

ـ محمود . افتح يا محمود . صفاء هنا .

كان صوتها خافتا كالهمس عندما قالت لي هذه الجملة الاخيرة وهي تهزني من كتفي برفق ، ولكنه كان واضحا غاية الوضوح ، ولا مفر من قبول الحقيقة دون اي محاولة للتهرب . لقد سمعت بالذات الجملة الاخيرة بكل حرف من حروفها : « صفاء هنا . » . وكأنما ذابت الحروف وتحولت الى سائل ناري اخذ يجري في عروقي مع الدم . وفتحت عيني على اقصى ما تكون سمعتهما وقذفت الغطاء بعيدا بركلة من قدمي، واستويت جالسا على السرير وجذبت اختي من يدها فأجلستها الى جواري ، بعد ان كانت هي من تلقاء نفسها قد ادركت ما انا فيه وأطلقت ضحكة خيل الي ان جميع رواد الكازينو قد سمعوها ودهشوا

مجلة سندباد : مجلة الاولاد في جميع البلاد

تطلب من جميع الباعة والمكتبات الشهيرة

فأغلقت الباب ، وقلت لها مفزوعا :

ـ ماذا حدث ؟

ـ اقول لك صفاء هنا ، ألا تسمع . وصلت حالا .

ـ وماذا جاء بها ؟

ـ جاءت تقابل خطيبها وتمكث معنا قليلا . عدة ايام .

ـ وخطيبها معها الان ؟

ـ لا .

ولم ارد عليها . غير أنها قامت وخرجت في هدوء بعد ان اغلقت الباب وراءها وخلفتني وحدي . وتذكرت في الحال الخطاب الذي ارسلته لي صفاء وانا في العراق . فقد قالت لي فيه بكلمات ساذجة :« انني سأتزوج رجلا آخر غيرك ، ولكنك ستظل اطيب انسان عرفته في حياتي .» لم تكن متاعب السهر في الليلة الماضية قد زالت آثارها من جسمي تماما ، وفوق ذلك فاني لم أحظ بأكثر من ساعتين قضيتهما نهبا للاحلام المفزعة ، وهانذا أحس أعضائي كلها الان وكأنها قد انفصلت عن بعضها واستقل كل عضو بذاته استقلالا تاما . كانت الايام الاخيرة هذه قد سلبتني كثيرا من وهج الحياة ، ولذلك كان الشعور المسيطر علي بشكل واضح جدا هو انني اضمحل ، اتبخر شيئا فشيئا . وبالرغم من ان خبر وجود صفاء بالبيت قد اثارني جدا ، الا أنني بعد قليل استشعرت له طعما سائغا للغاية في وجداني . انها قريبتي ، وهي الانسانة الوحيدة التي عشت معها تجربة حب حقيقي لم تشأ له الظروف ان ينتهي نهاية سعيدة . فقد كبرت البنت دون ان افرغ من تعليمي ، وما ان فرغت منه حتى كان علي ان ابحث عن عمل خارج مصر . فما كان من اهلها الا ان قبلوا اول من تقدم اليهم يطلب يدها . لم اكن قد رأيتها منذ خمس سنوات على التقريب ، والصورة التي احفظها لها في ذهني هي صورة فتاة حلوة مشرقة الوجه لم تتجاوز الرابعة عشرة من عمرها . ترى كيف اصبحت الان ؟ وكيف لي ان اواجهها ؟ وعلى اي نحو سأتصرف معها ؟ وما الذي سأقوله لها ؟ وهل هي حقا آتية لرؤية خطيبها ام أنها ترمي الى شيء آخر دفع بها اليه اليأس وخيبة الامل ؟. في الحياة اناس قد ركزوا سعادتهم ، برغم قسوة الظروف ، في شيء واحد فقط ، جانب واحد من جوانب وجودهم تضخم وتضخم في نظرهم حتى صار هو الوجود نفسه ، الحياة بكاملها . بعضهم اختار المال وبعضهم آثر النجاح او الصحة مثلا . ولذلك فقلما تراهم يحزنون اذا ما اصابهم مكروه خارج حدود هذا الجانب ، بل انهم قد لا يشعرون به . وهذه الفتاة الصغيرة كانت قد فضلت الحب على اي شيء سواه فعلقت عليه كل آمالها وركزت فيه كل افراحها المبتغاة . وكنت انا الانسان الذي احبته . وهانذا الان ادرك تماما انها قد جاءت لا لترى خطيبها ، فانا واثق انها لا تود رؤيته طوال حياتها ، ولكن لتثير في كل احاسيسي القديمة لكي احاول بدافع منها ان امنع اتمام هذا الزواج . وهذا امر مستحيل ما دام قد وصل الى هذا الحد . فأبوها قد اعطى كلمة لخطيبها ، وليس من الشرف بنسبة لرجل ريفي عندنا ان يرجع في كلمته . وهي تعلم ذلك ايضا . ولكني تذكرت امرأة من قريبات امي مات ابنها الضابط في حادث سقطت فيه الطائرة التي كان يقودها في البحر وهي عائدة من اوروبا بعد تخرجه بشهور . غير انها أبت ان تصدق موته وظلت تؤكد لكل من تراه ان ابنها سيعود بعد ايام . وأخذت تهيء له حجرته كل يوم وترسل ملابسه الى المكوجي وتنظف فراشه ، وتفاضل بين الفتيات اللاتي قد رشحنهن من قبل للزواج منه . ظلت شهرا كاملا بهذه الصورة ولم تنتقل من البيت الا الى مستشفى الامراض العقلية . افكانت هذه الفتاة تطلق آخر صرخة يأس بهذه الزيارة على حب لا تريد ان تصدق انه مات ، او بالاحرى قضي عليه بالموت ؟ وصممت على ان اكون رابط الجأش جدا خلال فترة اقامتها بالمنزل ، وصممت ايضا على الذهاب الى خطيبها لاستدعائه ليكون الى جانبها معظم الوقت ، وكذلك صممت على ان اقضي اكبر فترة ممكنة من وقتي خارج البيت . ولكني كثيرا ما اصمم على اشياء لا استطيع تنفيذها مطلقا . وهانذا جالس على سريري قبل ان اخرج اليها ، وبيني وبينها فاصل رقيق للغاية ، باب خشبي ، ولست ادري اذا ما فتحت هذا الباب وخرجت اليها فهل سأستطيع كبت عواطفي التي تبرزها الان تمزقات هذه الايام الماضية . ربما ضممتها الى صدري امام الجميع وقبلتها قبلة اضع فيها كل متاعبي ومخاوفي وآلامي ، وربما لم تخرج من شفتي سوى ثلاث كلمات رتيبة خالية من المعنى هي : « ازيك يا صفاء » . لست ادري . الا انها هي نقطة الظهر الوحيدة في حياتي . غير ان الباب انفتح بصورة غير متوقعة ووجدتني وجها لوجه امام انسانة تعرفت في ملامحها بعد عناء شديد على فتاة الرابعة عشرة الصغيرة التي كنت احبها والتي قضيت معها فترة طويلة من عمري في طفولتي ومراهقتي . انني الان امام امرأة كاملة ناضجة ولم تمهلني حتى استرد قواي التي امتصتها المفاجأة ، اذ قالت لي وقد استلقت بكل شجاعة على مقربة سنتيمترات مني فوق السرير : ـ

ـ ازيك يا محمود . ألا زلت تذكرني ؟

ووضعت يدها على كتفي ، وكنت لا ازال مستلقيا كما تركتني اختي منذ دقائق ، ثم قربت جسمها مني اكثر من ذي قبل ، وامتدت ذراعها الى عنقي فطوقته ففقدت حساسيتي بالمرة ، ورحت في شبه غيبوبة ، واصابني دوار . ولست ادري ما الذي جعلني اتذكر سناء وما صنعته معي في الليلة الماضية . لقد تحولت الفتاة الصغيرة الخجولة التي كانت تحمرّ وجنتاها لابسط كلمة ثناء من رجل الى امرأة متبجحة ترغب في غير خجل ، ولا تطرف لها عين وهي تطوق شابا في الثامنة والعشرين من عمره بذراعيها وتقرب وجهها من وجهه وتكاد تلتصق به بجسمها كله وهو راقد لا حيلة له على فراشه غارق في الاحزان . وتخلصت منها بسرعة ، ونظرت اليها نظرة عتاب صامتة دون ان احرك شفتي بكلمة ، غير ان ذلك كان اشد اثارة لها فيما يبدو . وخيل الي انني ربما كنت بطلا لقصة غريبة تكتبها المصادفات ، والا فأي تبرير معقول لهذا الذي يحدث لي منذ عدت الى مدينتي . وحاولت ان اجعل صوتي يبدو رزينا وأنا اقول لها :

ـ أين خطيبك ؟

فضحكت . يا الهي ! ، انها نفس الضحكة التي اطلقتها سناء بالامس في الكازينو .

ـ من خطيبي ؟

ـ خطيبك طه .

ـ طه !.. آه ... في الوزارة

ـ أي وزارة ؟

ـ وزارة المالية .

وبعد قليل كان طه يجلس معنا على الغداء . ولست أدري أهي المصادفات وحدها التي جعلت مقعدها يكون ملاصقا لمقعدي ام هو تدبير محكم منها لكي تواصل اثارتي هكذا امام الجميع وفي وجود الرجل الذي سيصبح زوجها بعد اشهر . ولكني مع ذلك ظللت طوال فترة الاكل

صامتا . كانت انفعالات شتى ، بل ومتناقضة ، تتجاذبني . غير ان شيئا منها لم يكن باديا على سحنتي . هذه هي المرة الثانية التي اصبو فيها الى لحظة جميلة شفافة ، فما اكاد اصل اليها الا وأجد الوهج الذي كان يبهرني من بعيد وقد خبا منها تماما وأراني ازاء كائنات باردة ودنيئة ايضا.

واستأذنت بعد الطعام ودخلت الى حجرتي ، الا انها لم تتركني ، فسرعان ما رأيتها على سريري .

ـ لماذا انت حزين ؟

ـ لا شيء .

ـ انا افهمك . عندما خرجت في الصباح ، وقفت في شباك حجرة الجلوس ورأيت الفتاة التي تسكن في العمارة المقابلة ونظرت الي بغيظ. انها هي السبب . يا خائن !

ـ أي فتاة ؟

ـ أي فتاة . هه . لست أنا التي يمكن ان تخدع بمثل هذا الكلام . ولكن ....

ـ ماذا ؟

ـ ولكن ... احبك مع ذلك .

منذ ان دخلت هذه الفتاةالى بيتنا لم اسمع منها كلمة واحدة تنطقها باخلاص مثلما نطقت هذه الجملة الاخيرة . لقد خيل الي ساعتها أنها تحولت فجأة ، وبمنتهى السرعة ، الى فتاة صغيرة مشرقة الوجه ذات اربعة عشر عاما . فتاة احفظ ملامحها في قلبي بدقة بالغة . وكانت ساعتها كأنما تنفخ في نار خامدة في داخلي . وما انقضت دقائق الا وكانت مرتمية علي تقبل كل جزء من صدري وتجذب شعري وهي تشهق.ودفعتها بعيدا عني بذراع متخاذلة ، وصفقت باب الحجرة ورائي ونزلت الى الشارع لا ادري الى اين اذهب على التحديد .

✶

يسعدني كثيرا ، اكثر من أي شيء آخر في الحياة ، ان استغرق في منظر العالم قبل ان تطلع الشمس بقليل . انها لحظة ميلاد رائعة تحتفل بها السماء وتستقبلها الارض نفسها بصمت مهيب ، كأنما المولود القادم سيكون له شأن كبير في هذه الدنيا . هناك لون لا استطيع ان اطلق عليه اسما محددا ، ولكنهيذوب بدرجات متناسقة جدا في الافق . البيوت كلها ساكنة وما من صوت بعد ، غير صوت واحد طويل متصل ، لا اسم له ايضا ، ولا استطيع ان ادرك من اين ينبع فهو آت من كل مكان ،كأنما ليبارك الضوء القادم هناك من بعيد . ويضحل اللون بالتدريج ، شيئا فشيئا . بينما تصعد حزمة من خيوط الضوء الذهبية لتندمج مع زرقة الافق وبياض قطع السحب المتناثرة . هناك ، في شرفة من شرفات احد البيوت في حي من احياء القاهرة، كان شاب قد بلغ الثامنةوالعشرين من عمره ، ليس في هذه اللحظة ، ولكن منذ عدة شهور ، يقف بملابس نومه وقد سدد نظرات الى الافق البعيد . وكانت لا تصدر عنه اي حركة : شاب لم يكن لديه عمل ، ولم يكن يتمتع بالحب ، وكانت الصداقةبالنسبة اليه عبئا لا يحتمل . ولكنه ظل مع ذلك واقفا يستقبل هواء الصبح الرطب وما زالت نظراته عالقة بالافق الرائع الذي يولد منه النور .

القاهرة — وحيد النقاش